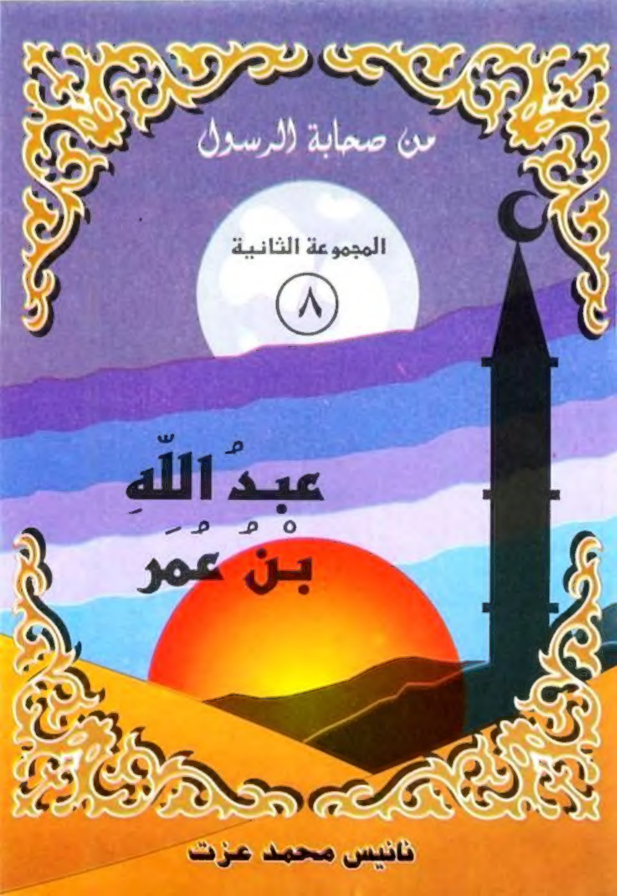

من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
٨
عبدُ اللهِ
بنُ عُمَرَ
نانيس محمد عزت

عبد اللّه بن عمر

ضاع من أسامةَ قلمُهُ الحبرُ الجديد ، وفى نفس اليومِ رأى مع صديقِه أيْمنَ قلما مثله ، فاتّهمهُ بسَرقةِ قلمِه ، وطلبَ منه أن يردَّهُ إليه . فغضب أيمنُ لاتّهام صديقِه أُسامةَ له بالسّرقة ، ودافعَ عن نفسه فقال : إنّ والده اشتراهُ له هديّة بمناسبة عيد ميلاده .

وتشاجرَ الولدان ، وكلٌّ منهما يدّعى ملكيّة القلَم ، وأخيرا اتّفقا على أن يكون صديقُهما إيهابُ حكما يقضى بينهما بالحقّ . واستمع إيهابُ إلى حُجّة كُلّ من الولدين أسامة وأيمن ، ثمّ وعد بأن يُصدر حُكمَه فى الغد .

وفى البيتِ جلس إيهابُ يُفكّرُ فى الأمر طويلا ، فسألهُ والده : ما الّذى يشغلُ بالك يا إيهاب ؟ .

قال إيهاب : أنا مُحتارٌ يا أبى . فكلٌ من صديقىَ أسامة وأيمن ، مُصرٌّ على موقفه ، ويدّعى أنّ قلم الحبر له ، فلمَن القلمْ يا تُرى ؟ .

قال والده : لقد قبلتَ يا ولدى مُهمّة صعبة . فهل أنت كُفؤٌ لها ؟ لقد رفض مثل هذا التكليف من هو أكفأ وأعقلُ منك ، فكيف تقبلُه وأنت أقلُّ منه بكثير ؟

ألا تعلمْ أنّ عبد اللهِ بن عُمَر ، رفض أن يقضىَ بينَ النّاس وقال : إنّ القُضاة ثلاثة : قاض يقضى بجهل فهو فى النّار ، وقاض يقضى بهوى ، فهو فى النّار أيْضا ، وقاض يجتهدُ ويُصيبُ فهو كفافٌ لا وزر ولا أجر .

فبهت إيهابُ وقال : ويلٌ لى ! مالى ولهذا القلم اللّعين ؟ سأعتذرُ لصديقىَ غدا عن هذا التكليف

المهلك . ولكن هل لك يا أبى أن تحكى لى قصة عبد الله بن عمر بن الخطاب ؟ إنْ نسبهُ وحُده إلى أبيه ، يُبشّرُ بقصّة رائعة .

قال والده : هذا حقٌّ يا إيهاب ، فمنْ كان محمد ـ صلّى اللهُ عليه وسلّم ـ أُستاذه ، وعمرُ بنُ الخطّاب ـ رضى اللهُ عنه ـ أباه ، لـهُو شخصٌ عظيم ، يجبُ عليك أن تعرف سيرته . فقد أسلمَ عبدُ الله بنُ عمر بمكّة ، وهاجر إلى المدينة مع أبيه وهو فى الثالثة عشْرة من عُمره ، فكان ابنا من أبناء الإسلام ، الّذين شبّوا وترعْرعوا على أخْلاق الإسلام وقيمة الحميدة . وقد أراد سيّدنا عمرُ أن يُشارك ابنُهُ عبدُ اللّه فى غزوتىْ بدر وأُحُد ، ولكنّ رسولَ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ ردهُ خوفا عليه لصغر سنّه يومئذ ، ولكنّه أجازهُ يومَ الخندق ، وكان حينذاك ابن خمس عشرة

سنة . ولم يدعْ بعد ذلك أيَّة غزوة ، إلاَّ وشارك فيها بنفسه .

قال إيهابُ متعجبا : شارك فى الحرب وهو ابنُ خمس عشرة سنة فقط ! إنَّ هذا عجيب ! .

قال والده : لقد قلتُ لك إنَّه ابنُ الإسْلام ، وقد كان يُحبُّ الرَّسول - صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم - كلَّ الحُبّ ، ويُحبُّ أن يتأسَّى به ، ويفعلُ مثل ما يراهُ يفعل . فأيْنما صلَّى الرَّسولُ صلَّى عبدُ اللَّه ، وأيْنما دعا الرَّسولُ دعا عبدُ اللَّه ، وفى هذا الطَّريق مشى الرَّسول ، مشى فيه عبدُ اللَّه ، وفى هذه البُقعة نزل الرَّسولُ عن ناقته وصلَّى ، نزل عبدُ اللَّه وصلَّى . حتَّى إنَّ السيِّدة عائشة - رضى اللَّهُ عنها - قالتْ عنه : ما كان أحدٌ يتبعُ آثارَ النبيِّ - صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم - فى منازله ، كما كان يَتبعُهُ ابنُ عمر .

وعلى الرّغمِ من أنّ عبدَ اللّهِ بنَ عُمَر ، كانَ حَريصًا على اتّباعِ سُنّةِ رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ والعَملِ بِها ، ومُحاكاتِهِ في كلّ ما يَفعَل : إلاّ أنّه لَم يُحدّث عَنه قطّ ، إلاّ إذا كانَ واثِقًا من كلّ كَلِمةٍ يَقولُها . أو كلّ حَرفٍ يَنطِقُ به ، وكانَ يَحذَرُ كلَّ الحَذَر ، أن يُبدّلَ حَرفًا مَكانَ حَرف ، أو أن يَضعَ كَلِمَةً مكانَ كَلِمَة . ولذلك كانَ شَديدَ الحَذَرِ في الفُتْيا أيضا .

فإذا جاءَهُ أحدٌ يَستَفتيهِ في أمرٍ ما ، وهو غيرُ واثِقٍ من إجابَتِهِ عن هذا الأَمر ، ردَّ عَليه بِقَولِهِ دونَ إحْراجٍ أو خَجَل : لا عِلمَ لي بِما تَسألُ عنه .

ضحِكَ إيهابُ وقال : لَم يَعدْ هُناكَ مَن يُقولُ مِثلَ هذا القَول ، فكلُّ إنْسانٍ يدّعي العِلْم ، ويُدلي بَرأيهِ فيما يَعلَمُ وفيما لا يَعلَم .

قالَ والِدُه : وكذلِكَ هُناك مِن يتحَمَّلُ مَسئوليَّةَ القاضى ، وهو غيرُ كُفءٍ لها .

فأومأ إيهابُ برأسِهِ خَجِلا . فقال والِدُه : أعتَقِدُ أنَّكَ عَلِمتَ الآنَ خطأَكَ . فقد عرضَ سيِّدُنا عُثمانُ رَضِيَ اللّهُ عنه ـ مَنصِبَ القاضى علَى عبدِ اللّهِ بنِ عُمَرَ أكثر من مَرَّة . فاعتَذرَ عن قَبولِهِ لئلاَّ يُخطِىءَ أو يَحكُمَ بهوَى نفسِه ، فيكونَ نِهايَتُه النّارَ والعِياذُ باللّه . واْقتنعَ سيِّدُنا عُثمانُ برأى عبدِ اللّهِ بنِ عُمَر ، ولكِنَّه طلبَ منه أن يَحتَفِظَ برأيِهِ هَذا ، وألاَّ يُدْلِى به لأحَد ، فلا يَجدَ من يقبَلُ أن يَشغَلَ هذا المَنصِب .

وكما رفضَ عَبدُ اللّهِ بنُ عَمَرَ مَنصِبَ القَضاء ، رفضَ كذَلِكَ مَنصِبَ الخِلافةِ أكثرَ من مَرَّة .

فعندما قُتل عثمانُ بنْ عفّان ، قال النّاسْ لعبدِ اللّه : أنتَ يا عبدَ اللّهِ سيّدُ النّاسِ وابنْ سيّدِ النّاس ، فاخرُج نُبايعْ لكَ النّاس .

فردّ عليهم بقولـه : إنّي واللّهِ لئن استطعت ، لا يُهْراقُ بسببي مِحجمٌ من دَم .

قالوا له : لتَخرُجَنَّ أو لَنقْتُلَنّكَ على فِراشِك .

فأعادَ عليهم ما قالَه أوّلا ، فأطْمعوهُ ثمّ خوّفوه فلم يُغيِّر ذلك من رأْيه .

قال إيهاب : ألهذه الدّرجةِ كان يَخشى الخلافة ، ويَخشَى المسئوليّة ؟ .

قالَ والِده : إنّه لم يَخشَ المسئوليّة ، ولكنّه خافَ أن يكونَ سببا في قِيامِ فِتنَةٍ ونزاعٍ بينَ المسلمين ، فاشْترطَ لقبولهِ الخِلافة ، أن يَختارَهُ كلُّ المُسلمين طائعينَ مُختارين .

قال إيهابُ : حقًا إنّه تقيٌّ ورعٌ زاهد ، رفض الكثير من المناصب البرّاقة . رفض القضاء ورفض الخلافة ، على ما فيهما مِنْ نفوذ وجاه وثراء .

ابتسم والده وقال : ثراء !! كان المالُ آخر ما يهمُّ عبدَ اللهِ بن عمر ، فقد كان المالُ همًا وكربًا له .

قال إيهابُ : المالُ همٌّ وكرْب ! كيف ذلك ؟

قال والده : كان عبدُ اللهِ بنُ عمر من ذوى الدُّخول الكبيرة ، فقد كان تاجرا أمينا ، وكان له راتبٌ كبيرٌ من بيتِ مال المُسلمين ، ولكنهُ لم يدّخر لنفسهِ أيّة أموال ، فكانت أموالُه كلُّها حقًا للسّائلين والفُقراء والمساكين والأيْتام .

يُحكَى أن جاءَهُ ذاتَ يوم أربعةُ آلاف درهم وقطيفة ، فلم يبتْ ليلتهُ ذلك اليوم حتى فرّق المال كلَّه ، حتّى القطيفة تصدّق بها على الفُقراء ، ولم يُبق

فى بيته ولا درهمٌ واحد . وفى صباح اليوم التالى كان عبدُ اللّه بنُ عمر بالسّوق ، يشترى بالدّيْن علفا لدابّته .

تعجّب إيهابُ عجبا كثيرا ، فأكمل والده : ليس هذا فقط يا بُنىّ ، فقد كان الزُّهدُ من أبرز صفات عبد اللّه بن عمر . فكان يتصدّقُ فى المجلس الواحد . بثلاثين ألف درهم أو يزيدُ عليها . وكان لا يأكلُ إلاّ ومعه على مائدته فُقراءُ أو أيتام . وكان الفُقراءُ يتعمّدون أن يجلسوا فى طريقه ، حتّى يراهم فيدْعوهم إلى طعامه .

وتحكى زوجته أنّه إذا لم يجد من يُشاركُه الطّعام من الفُقراء أو المساكين أو الأيْتام ، أبى أن يأكل ، ونام بدون عشاء .

قال إيهاب : حقّا إنّه ابنُ سيّدنا عُمر بن الخطّاب .

قال والده : وكان دائما ما يعيبُ على أبنائه دعوتهم الأغنياء دون الفُقراء ، فيقولُ لهم :

ـ تدْعون الشّباع وتدعون الجياع ؟

وجاءهُ ذات يوم صديقٌ له بدواء ، هديّة من العراق . وعند ما علم أنّ هذا الدّواء مُهضمٌ للطّعام ، ضَحِكَ وقال :

ـ يهضمُ الطّعام ؟ إنّى لم أشبع من طعام قطّ ، منذُ أرْبعين عاما . ولم يكن الزُّهدُ فقط من أبرز سماته أو صفاته ، فقد كان عابدا يُكثرُ من الصّلاة وتلاوة القُرآن ، ويذكُرُ ربّه كثيرا ، وكان لا يدعُ قيامِ اللّيل ، أو اسْتغفار السّحر كيفما كانت الظّروف ، ولذلِكَ قصّة .

تساءل إيهاب : أيّةُ قِصّة يا أبى ؟ احْكها لى .

قال والده : عندما كان عبدُ اللَّهِ شابًا لم يتزوّج بَعد ، كان ينامُ في المَسجد ، وقد رأى في منامه رُؤيا يحكيها لنا فيقول :

- رأيتُ على عهدِ رسول اللَّه - صلّى اللَّهُ عليه وسلّم - كأنّ بيدى قِطعة من إستبرق ، وكأنّنى لا أُريدُ مكانا من الجنّة ، إلاّ وطارتْ بى إليه ، ورأيتُ كأنّ اثْنَيْن أتيانى وأرادا أن يَذهبا بى إلى النّار ، فتلقّاهُما مَلَكٌ فقال :

- لا تُرع .

فخلّيا عنّى .

وحينَ قصّت أُختُهُ السّيّدةُ حَفْصَة ، الرُّؤيا على رسول اللَّه - صلّى اللَّه عليه وسلّم - قال :

- نعم العبدُ عبدُ اللَّه ، لو كان يُصلّى من اللّيل فيُكثر .

ومنذ ذلك اليوم كان عبدُ اللّه بنْ عمَر ، لا يدع قيامَ اللّيل ، ولا يتكاسلْ عنه ، سواء أكان في حلّ أو ترحال .

قال إيهاب : هنيئا لمن كانَ في مثلِ أخلاق عبد اللّه ابن عمَر ، فهوْ مثالٌ يُحتذى به في التُقى والورع والكرَم والجودِ والتّواضع والاسْتقامة والمُثابرة على العِبادَة .

قال والده : وهذه الأخْلاقُ الحميدةُ التي ذكرْتها يا إيهاب ، كانت هيَ التي أبعدتْهُ عن الفتن والنّزاعات ، بين أنْصار عليّ بن أبي طالب ومُعاوية بن أبي سُفْيان . فاعْتزل الخلافات ، واتّخذ موقفا مُحايدا ، وجعل شعاره :

من قال : حيّ على الصّلاة أجبْته .

ومن قال : حيّ على الفلاح أجبْته .

ومن قال : حيٌّ على قَتلِ أخيك المُسلِمِ وأخذ ماله ، قلتُ لا .

وفي العامِ الثّالثِ والسَّبعينَ من الهجرة ، تُوفّي عبدُ اللّهِ بنُ عُمَر ، وهو ابنُ أربَعٍ وثمانينَ سنة ، وقد وصَفَهُ مُعاصِروهُ فقالوا :

ـ ماتَ ابنُ عُمَر ، وهو في مثلِ عُمَرَ في الفَضْل .

قالَ إيهاب : شكرا لك يا أبي على هذه القِصَّة المُفيدَة ، المَليئَةِ بالعِبَرِ والعِظات .

* * *

وفي اليومِ التّالي عادَ إيهابُ من المَدرَسةِ فرحان ، وقال : الحمدُ لله يا أبي ، فقدْ نجّاني اللّهُ من تلك المُهِمّة الشّاقّة التي كُلِّفتُ بها ، فلقد وجد أسامةُ قَلمه ، و كانَ قد نَسيَه في البَيت .

سأل والده : وهل اعْتَذرَ لأيْمن ؟

قالَ إيهاب : نَعم ، اعْتذرَ له على مرأى ومسمع من جَميع أصْدقائنا .

قالَ والِدُه : حَسنا فَعل . وأرْجو يا إيهابُ أن تتعلَم من موقف أسامة الخاطئ ، فلا تُسارع باتّهام أحد ، وأنتَ غيرُ مُتأكد تماما من اتّهامه . فقد قالَ تعالى : ﴿ يا أيُّها الّذين آمنوا إذا جاءكُم فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا أنْ تُصيبوا قوما بِجهالَة فتُصبحوا على ما فعلْتم نادمين ﴾ .